

من السحارة .. وإلى السحارة !

وكان مساءً وليل مطير ورعد يفجر نار الغضب
ورحنا نقاوم سيلاً غنياً جرى حول منزلنا وانسكب
وراح ابني فيه يفضي إلينا بان الشقاء علينا كتب !!
وان علينا الرضى بالقضاء وان المقدّر امر وجب !!

وفي «مكتب الشيخ» قالوا لنا *
وان القناعة كنز عجب يظل مدى الدهر ما إن يبيد
وان بحارتنا منزلاً عفا ريته تحصب الساكنين
وحدثنا الشيخ عن جنة *
وفي مسجد هدمته السنون سمعت نداء الامام العتيد
يحذر امثالنا المفلسين من المال !! من طمع الطامعين
واسأل نفسي لماذا ارى الشيخ يصرخ في اوجه السامعين
لماذا يهدم بالعذاب *
والعن في السر هذا الذي يكيل الشتائم للبائسين
ومن يومها كوّنت عقدة باعاق نفسي للواعظين
واصبحت حين ارى واعظاً يعود حيالي لماضي السنين
واذكر شيخي و«كتابه» *
ومطرقة علمتنا الخضوع لمن يشترينا من الحاكمين

فيا صاحبي قد ورثنا الظلام *
ظلاماً تسربل اعماقنا *
وصار يلون افكارنا !! *
عرفنا الطريق لآمالنا !! *
وعشنا حيارى باكوأنا *
بان القناعة كنز الغني *
واوهامنا صنعت قيودنا *
وحين نخطم اوهامنا *
وحينئذ لن ارى الكادحين *
واسمع «يا ليل يا ليل» تحكي ائتلاف الظلام مع البائسين
ولكن ساسمع يا فجر اشرق يا فجر حطم ظلام السجون
ونقضي الخرافة عن «حارتي» *
ويبتسم الفجر للساشرين

يقول رفيقي : عش للسماء
ودونك افق فسيح المدى
تسام بدنياك فوق التراب
ولا تحترق بالظى المضرم

وأصرخ في صاحبي ثائراً *
ديوكا وبطاً وخبزاً وماء
ولكنني كل يوم انام
وأصحو لتلفظني حجرتي
واسأله أتكون السماء :
وقصراً مشيداً بديع الرواء
وأشهد في الحلم هذا الهناء
الى «حارة» غاب عنها الضياء

ولكن لي يا رفيقي سماء *
أحين إليها حيناً قوياً
على مهدها رققت فرحتي
وعانقت أمني في ليلها
سواء تجوع وتعري معي
حين الصباح الى المطلع
وفوق تراها جرت أدمعي
وخفت من الشبح المفرع

ومن رجل سلخت رجله *
وفيها رأيت ابني حائراً
سجائي التي فلسفت لي الحياة
أما زلت تجهل ماذا أريد
يشق الجدار ولا يرحم
يغلفه صمته المبهم
وفي ليلها لم أزل احلم
وتسخر مني ولا تهم ؟

ففي «حارتي» يسكن الكادحون *
إذا ما بدا الفجر يستيقظون
وفي ليلهم يشربون «الحشيش»
عسامهم يحسون ان الحياة بعين الخيال كعين اليقين !!
عسامهم يرون القصور التي بنوها لأسياهم مجبرين !!
بنوها وظلوا بأسوارها وعاشوا لابوابها حارسين
وفي نفثات الدخان المرير يضيعون اعمارهم مرغمين
وقد يفجأون بما يكرهون وتلقي بهم في زوايا السجون
فتمسكهم عصة المخبرين وتلكي ائتلاف الظلام مع البائسين
واسمع «يا ليل يا ليل» تحكي سيطر يوماً على الساهرين
وجهل الضحايا بان الصباح لماذا نفسي لماذا ترى
لماذا يخافون ضوء الصباح ولا يحملون بفجر مبين ؟

ومرّ بذهني عهد الصبا *
ويومٍ توارى وراء الحقب

سعد دعبس

مصر - الزيتون

المدرس بالزيتون الابتدائية